

الاستطرادات المختلفة التي يحاول بها الجاحظ الالمام بمعطيات مبدأ توافق الجدولين من الناحية المبدئية قبل كل شيء فيعرض علينا سلسلة من الأحكام التقديرية تبوء العمل الفني المقصود لذاته منزلة تميزه عن البث الآني والخلق المرتجل، وبذلك يكون « الأسلوب » وليد مخاض فني طويل خاصيته الأساسية أنه عمل واع قبل كل شيء إذ هو بمثابة صهر المادة اللغوية في بوتقة التكرير الفني: « ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب ، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتدارا عليه وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معازم التدبير ومهمات الأمور ميثوه في صدورهم وقيدوه على أنفسهم فإذا قومه الثقافة ، وأدخل الكثير ، وقام على الخلاص أبرزوه محكما منقحا ، ومصقى من الأدناس مهذبا» (٢-١٤) .

فإذا كان هذا التصوير يمثل الاتجاه العمودي في عملية الخلق الأسلوبية اعتمادا على محاولة بلوغ درجة ما من التعمق تكثف نوعية مادته فإن هذا الاتجاه يتقاطع مع اتجاه أفقي يرمز إلى البعد الثاني في عملية التكرير وهو البعد الزمني :

« ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا ، وزمنا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، أتهاما لعقله ، وتتبعها على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ورأيه عيارا على شعره ، إشفاقا على أدبه وإحرازا لما خوله الله تعالى من نعمته وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات